عقدة اللون عند الأغربة في الشعر العربي قبل الاسلام
[عنترة بن شداد إنموذجاً]

د. شروق عيد المجيد سلمان الخطيب
المديرية العامة للتربية في بغداد/ الرصافة الأولى

الملخص :

شكلت عقدة اللون عند أغربة العرب في العصر الجاهلي مشكلة نفسية تأصلت فيهم أوجدها المجتمع الذي كان ينظر اليهم شزراً لأنهم ولدوا لإمهات إماء اكتسبوا لونهم الأسود منهن فلم يعترف بهم آباؤهم ، وكانوا يستعبدونهم . فكان من أولئك الأغربة مَن رضخ لمصيره الذي فرض عليه الذل و الهوان فكان عبداً يخدم إخوانه الصرحاء و منهم مَنْ لم تهدأ له نفس فثار بوجه المجتمع ونال حريته كما ان هناك مَنْ خرج على أعراف القبيلة وأصبح صعلوكاً متمرداً على مَّنْ جار عليه بالحكم الدوني للونه الأسود ، واتخذ البحث من عنترة بن شداد إنموذجاً للأغربة الذين لم يستسلموا لذلك الهوان فاعترف أبوه ببنوته وألحقه بنسبه وهكذا هي همة الأبطال . ضم البحث مقدمة تناولت طبيعة الحياة الاجتماعية للمجتمع القبلي ولطبقاته الاجتماعية . وجاء في مبحثين تناول المبحث الأول المعنى اللغوي والاصطلاحي للأغربة كما بحث في وضع الأغربة في دستور القبيلة والتحليل النفسي للون الأسود وانعكاسه على النفوس وتناول عقدة اللون عند الأغربة ، اما المبحث الثاني فتناول الأثر النفسي لعقدة اللون عند عنترة بن شداد فضلاً عن كيفية مواجهة عنترة لمأساته وخلاصه من عفدة اللون .

المقدمة

بني المجتمع الجاهلي على ركيزة أساسية هي(القبيلة) التي مثلت النواة الأولى لنشأته التي انطلقت من عاداتها وتقاليدها وأعرافها التي سار عليها أبناء القبيلة ونفذوها بحذافيرها، فقد عد من يخرج عليها خليعا او طريدا او خارجاً عن القانون القبلي التي كان لكل منها عقوبة خاصة به تتكون القبيلة من حيث طبقاتها الاجتماعية التي ضمنت أفرادها الى ثلاث طبقات مثلت الطبقة الأولى الصرحاء او الاصلاء وهم الذين ينتمون لجد واحد ،

وهم عماد القبلية وأساسها وفيهم تكون السيادة، وتناط بهم مسؤولية حماية أمن القبيلة وأفرادها وهناك مَنْ يقوم على خدمتهم من أبناء الطبقات الأخرى .يختار هؤلاء الصرحاء سيد القبيلة ويكون من بينهم حصراً. ويكون ذلك عن طريق الوراثة او عن طريق الانتخاب على أن يتمتع مَنْ يختاروه بصفات معروفة لديهم .

قال ابن خلدون في مقدمته عن السيادة بالوراثة (ان الرئاسة لابد وان تكون موروثة عن مستحقها)[1] وأكد ذلك قول احد شعراء العصر الجاهلي:

وَأني امرؤ من عُصْبَةٍ(*) مشْهورَةٍ حُشدٍ لهم مَجدٌ أشمٌ تليـــــدُ(*)
ألفَوا أباهُمَ سيداً وأعانَهُم كَرمٌ وأعمامٌ لَهُم وَجُـــــدودُ
إذْ كــل حـــي نابــت بِأرومـــــــةٍ(*) نبتَ العضاةِ فماجدٌ وكسيدُ[2](*)

ولم تكن الوراثة حكرا على سيادة القبيلة اذ كره اغلب سادات العرب ذلك لما يورثه مبدأ الوراثة من أحقاد لذلك عمدوا إلى مبدأ الانتخاب.[3]

قال عامر بن الطفيل في ذلك :

واني وإنْ كنتُ ابن سيدِ عامرٍ وفي السرّ منها والصريحِ المهذبِ
فما سَوَدتني عامرٌ عن وِراثَةٍ أبــى اللهُ إن أســمَــو بأمٍ ولا أبِ

أما الطبقة الثانية من طبقات القبيلة فهي طبقة العبيد و الموالي وأفرادها هم من الرقيق عربا أو غير عرب ، فأما العرب فهم الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة أو القبائل المجاورة اذ كانت الحروب دائمة بينهم لذلك كان السبي يطال الرجال والنساء على حد سواء فكانوا عبيدا للقبيلة الآسرة لهم[5].

وأما الرقيق من غير العرب فقد كان مصدره البلاد المجاورة للجزيرة العربية كالحبشة وغيرها من الأمم الأخرى[6]. كذلك هناك عامل ساعد على أن يكون في القبيلة عبيد من نوع آخر وهو حين يتزوج العربي من أمته وهو ما يتعلق بموضوع البحث. أو يكونوا ممن وقعوا أسرى لدى القبيلة ولم يتمكنوا من فك رقابهم فظلوا عبيدا في القبيلة[7].

وتعد طبقة الحلفاء الطبقة الثالثة من طبقات القبيلة ، والحلفاء هم الأحرار الذين لجأوا للقبيلة من قبائل عدة لأسباب مختلفة فقد يكونوا من الخلعاء أو من الضعفاء الذين يبغون الحماية أو ممن يطلبوا المعيشة في حمى القبيلة الحالية وهنا تتولد رابطة حلف بينهم وبين القبيلة التي لجأوا إليها[8].

وقد جبل العربي على حب قومه وقبيلته فهي التي تأويه وتدافع عنه حتى وإن حدث ما يستدعي أن يعيش خارج أراضيها وإن جارت عليه في أمر ما أدى إلى استبعاده عن قومه يبقى منتميا ومحباً لـــها ولا يزال يذكرها ويعلن ذلك في كل زمان ومكان.

نلمس ذلك في قول قيس بن الحدادية وهو أحد الذين خلعتهم قبائلهم بجريرة إرتكبها قال:

خُــزاعَةَ قومي فإنْ أفتــخْــر بهم عزكَ ومُعتصري والنَسبْ

يواسي لذي المحلِ مَولاهُم ويكــشــفُ عنهُ غموم الــكُــربْ[9]

تلك هي الطبقات الاجتماعية التي تكونت منها القبيلة وسيتناول البحث في مبحثه الأول معنى الأغربة بين اللغة والاصطلاح .

المبحث الاول: الأغربة بين اللغة والاصطلاح

لابد من وقوف عند الدلالة المعجمة (للأغربة) اذ إن صورة الغراب تتبادر الى الاذهان عند ذكر اللفظة فقد جاء في لسان العرب انهم (أغربة العرب وسودانهم، وشبهوا بالاغربة في لونهم)[10]. وتابعه صاحب القاموس المحيط بالقول (أغربة العرب، سودانهم، وشبهوا بالأغربة في الجاهلية، عنترة وخفاف بن ندبة ،وابو عمير بن الحباب، والسليك ابن السليكة ، وهشام ابن عقبه بن أبي معيط إلا إنه تخضرم وقد ولي في الإسلام)[11].

وبمجرد سماع هذه اللفظة يتبادر الى الأذهان ذلك الطائر البغيض المشؤوم ذو اللون الاسود الذي ارتبط عند العرب بالشؤوم والنحس وذلك ما نجده في قول عنترة

فــإنْ تَــكُ امــي غُــرابــيــة مــن أبناء حــامٍ بها عبــتَــنــي

فانــي لَطيــفٌ ببيــضِ الظبــى وسُمُــرُ العوالــي اذا جُئتنــي[12]

وقد اطلق هذا الاسم على الذين (تسرب السواد اليهم من امهاتهم)[13] من الإماء الذين لم يعترف بهم اباؤهم وان اعترفوا ببعضهم اعترفوا على ضيق منهم[14] .

وكانت العرب قد تشاءمت منهم لأنهم شبهوا بالغراب وكان ذلك مصدر تسميتهم ولما كان الغراب اسود اللون فقد ارتبط عندهم بالموت وبظلمة القبر فهو نذير للخراب والموت[15].

الأغربة في دستور القبلية

كان المجتمع الجاهلي يرزح تحت وطأة دستور قاسٍ يخلو من النظرة الإنسانية في بعض فقراته ولا يمكن لأفراده الخروج عليه : وكان من بين أحكامه الجائرة رفضه

الاعتراف بزواج العربي من أمته إذ كان ينظر إلى ذلك الزواج على انه زواج غير متكافئ ، كما كانوا لا يعترفون به وتسمى ثمرته ب(الهجين أو الهجناء)[16].

انا الهجينُ(*) عنترهْ كلُّ امرئٍ يحْمى حِرَه(**)

أســـــودَهُ وأحـــمرَهْ(***) والواردات ِمِشْـــــفَره[17]

وكانوا يستعبدونهم فهم أولاد الإماء ويرفضون الاعتراف بهم إلا اذا ابدوا نجابة[18] ، تمحو عنهم ذل العبودية والازدراء ومنهم شاعرنا عنترة بن شداد.

(وأسوأ هؤلاء الهجناء وأضعهم منزلة اجتماعية أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم فقد كانوا سبة يعير بها آباؤهم)[19]، فكانوا يستعبدونهم[20] . ومرد ذلك من غير شك الى اللون الأسود[21] .

التحليل النفيسي للون الاسود وانعكاسه على النفوس

عاش الأغربة ومنهم شاعرنا عنترة بن شداد في بيئة ترى ارتباط اللون الأسود بالظلام ارتباطا وثيقاً الأمر الذي جعلهم يخافونه[22] .

أكدت الدراسات الغربية القديمة التي تناولت الأثر النفسي للون الأسود تصريحا وتلميحا تأثير اللون الأسود في النفوس وارتباطه بالشؤوم والموت.فقد خص أبو هلالٍ العسكري لون الورقة الرمادي أو الأسود بقوله : (والورقة سود لا يخلطه بياض كدخان الرمث وهذا ألأم الألوان)[23] . نراه قد خص اللون الأسود باللؤم ، هي صفة تنفر منها النفوس . كما دل اللون الأسود للوقاية من الجن والشياطين[24] .

وعبروا به عن الحزن (والغيوم البيض المسفه خير من الغيوم السود المظلمة ، لان الغيوم المظلمة تدل على الحزن)[25] . من هنا نجد ان العرب (كانوا يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض وقد وصفوا كل شيء ممدوح كان ماديا او حسيا بالبياض)[26]. لهذا نجد أن العرب كانت تعشق اللون الأبيض حتى إنهم كنّوا بالبياض عن كرم الأصل وعلو الهمة ، ولم يكونوا ينظروا إلى الرجل الأسود أكثر من كونه رجلا دنيئاً وضيع النسب ، سيء الطبع ، ضعيف الهمة ، ولهذا كان السود في البشرة مكروه لعلاقته بالعبودية والظلام والتطير[27].

(*) الهجين : ولد الامه من سبيها.
(**)يحمي حره : يحمي عرقه
(***)أسوده وأحمره : يريد عَربه وأعجمه

فكان ينظر إلى الرجل الأسود نظرة دونية عبرت عن دناءة نفسه وضعته وقد شكلت تلك النظرة عند عنترة بن شداد (عقدة نفسية)[28] ، أو لنقل عقداُ نفسية تمثلت أولها بعدم اعتراف أبيه بنسبه له الأمر الذي أنسحب على عدم اعتراف قومه به أيضا فلم يستطع عنترة ان يتجاوز تلك العقدة أو التغلب عليها لان دستور القبيلة يتحكم بها ثم جاءت عقدة اللون الأسود لتزيد من معاناته وعقده النفسية وقد حاول جاهدا الخلاص منها من دون جدوى لان لون أمه سوداء ونسبها مجهول (كانت تنحدر إلى الطبقة الثالثة من نساء المجتمع القبلي بعد طبقه الحرائر وطبقه السبايا)[29] .

وجاءت العقدة النفسية الثالثة التي عذبت روحه وأدمتها متمثلة بالعبودية وانعدام الحرية فعنترة عبد ذليل يعيره قومه بسواد بشرته ويزيدونه لضعة نسبه من جهة أمه ويحتقرونه لعبوديتهم اياه تلك العبودية المتمثلة بقيامه على خدمتهم وأداء الإعمال التي يألف أبناء قومه الصرحاء من القيام بها . تلك العقد شكلت منحدرا في حياة عنترة العبسي عقداً حرمته لذة الحياة المستقرة والنفس المطمئنة.

عقده اللون عند الأغربة(عند عنترة بن شداد إنموذجا)

كان مصير العبيد في الجاهلية يدور في محورين الأول: محور الاستسلام المطلق لما أضفاه القدر عليهم من صبغة لونية أدت إلى التكيف مع واقع الحياة الذي غالبا ما كان يفضل فيه الإنسان ذو البشرة السوداء الخضوع للعبودية لينجو من القتل، وبين المحور الثاني المتمثل بتمرد الإنسان على التكوين الاجتماعي القاسي الذي يفرضه المجتمع القبلي في قوانينه الجائرة فيهرب للعيش ضمن جماعات سميت بالصعاليك.

أما شاعرنا عنترة بن شداد والذي عَدُ من العبيد فانه لم يؤثر الخضوع والخنوع للعبودية و لم يهرب ليعيش ضمن جماعة الصعاليك إذ نراه سعى لنيل حريته واسترداد نسبه وحاول جاهدا بناء حياة كريمة كالأحرار والصرحاء من أبناء القبيلة .

لكنه وجد نفسه أسيرا أمام عقبات وعوائق شتى منها ما كان اجتماعيا ومنها ما كان نفسيا حالت دون ذلك.

أما الاجتماعية فقد تجسدت بعدم اعتراف أبيه ببنوته إلا بعد أن أثبت بطولة وشجاعة في الذود والدفاع عن القبيلة وحماها فكان اعتراف شداد به بعد تردد كبير على مضض منه ولم ينل من ذلك الاعتراف حقوقه المادية والمعنوية.

كذلك كان اللون الأسود سببا في معاناته من صدود ابنة عمه له إذ كانت تبغضه للونه.

فليس هناك ما يؤكد حبها له. بل على العكس نجد صدودها عنه وتقليلها من شأنه بسبب لونه أضف إلى ذلك موقف عمه الرافض تزويجه عبلة له فهو العبد الأسود كيف له انه يتزوج من الحرائر، كل ذلك ولد عنده عقد الشعور بالنقص .

وعند إمعان النظر في أشعاره والخوض في دواخلها نجده كثيرا ما عبرّ عن عقدة اللون هذه بالإشارة مرة وبالتصريح مرة أخرى .

أما بالإشارة فقد تمثّـل ذلك واضحا في قوله الذي يخاطب به ابنة عمه :

إنْ تُغْدفي(*) دُوني القناعَ فإنني طَبٌ(**) بأخذِ الفارسِ المُستَلئمِ(***)

أثنـــي علـــيّ بما عـلمـــتِ فإنـــني ســـمح مـــخالطتـــي إذا لم أظلمِ

فإذا ظُـلـمْـتُ فإنّ ظُلمي بـاسلٌ مرٌّ مَذاقَه كَـطـعـمِ العـلقَـمِ(30)

فهو إذ يخاطب عبلة ويترجاها بأن ترخي قناعها دونه وهي إنما وضعته واستترت به عنه لأنها تستصغر شأنه لسواد لونه،فهو يرى صدودها له من خلال القناع . أو قد يكون هذا القناع رمز للون الشاعر الأسود،فإسدالها القناع أثار عند عنترة احساسه بعبوديته فما كان منه إلا أن يظهر فروسيته وشجاعته ليعوض بها عن شعوره بعقدة اللون، وفي موضع آخر نجده ألمح للونه الأسود من خلال الإشارة أيضا بقولهِ :

ولَيْسَ يَعيبُ السيِّفُ إخلاقُ غَمدِه(****) إذا كانَ في يومِ الوغى قاطعَ الحدِّ

فـــللّهِ دَرّي كـــم غُبارٍ قَطعْتـــهُ على ضامِرِ الجنبَينِ مُعتَدِلِ القدِّ(31)

ففي ظاهر البيت الأول نجد الشاعر تحدث عن السيف وغمده لكن عند الغوص في أعماقه نجده قد تحدث عن الجوهر متمثلاً بالسيف وأفعاله وعن المظهر متمثلاً بالغمد فلا قيمة للغمد حتى و إن كان جديداً أو مُزيناً أو إن كان قديماً بالياً، بل ان القيمة للسيف في قوته وقوة حامله وقدرتهما على قطع الرؤوس عند احتدام المعارك فنراه عمد إلى المقابلة إذْ قابل بين رمزية الغمد بالمظهر أو الخارج وقصد به (لون بشرته السوداء) ذلك الغمد الذي ليس له قيمة في إدارة دفة المعارك وحسم النصر وبين السيف (الجوهر) وهو الداخل الذي يحدد له قيمة الفارس وسيفه.

(*) تغدفي : ترخي القناع على وجهك
(**) طبٌ : الحاذق
(***) المستلئم : لابس الدرع
(****) اخلاق غمده : تلفه واصابته بالبلى

أما عن تعبيره عن عقدة اللون صراحة فإننا نجده عبّر عنها بمرارة وألم ممضين فألّح عليها لما سببته من ألم وأرق وقهر في نفسه ومَرد ذلك لعدم اعتراف أبيه بنسبه إليه وعدم اعتراف قومه به وعبوديتهم له وتلك هي النظرة الاجتماعية الدونية للسود.

فكانت نفسه أبيّة كريمة تغطيها قشرة سوداء يصعب عليه تغييرها قال :

لَئِنْ أكُ أسوداً فالمِسْكُ لَوني وما لِسوادِ جِلدي مِن دَواءِ
ولكِنْ تَبعُدُ الفحشاءُ عني كبُعدِ الأرضِ عَن جوِّ السَّماءِ[32]

كان عنترة يحمل في داخله نفساً حُرة أبّية لكن قشرته مغطاة بالسواد الذي صَعُبَ عليه تغييره، فحاول إضفاء صفة جميلة على ذلك اللون وهو الجوهر(الطيب) الذي يمثله المِسك فحاول الفخر بذلك اللون الذي لا يقل أهمية عن لون الطيب (المِسك) .

المبحث الثاني : (تحليلي)

الأثر النفسي لعقدة اللون عند عنترة بن شداد (المعالجة التي اتخذها عنترة لتحرير ذاته)

وعى عنترة بن شداد اختلافه عن بني جنسه كما وعى نظرة قومه وأبناء مجتمعه له ، ذلك المجتمع الذي ازدرى اللون الأسود وصاحبه وبَغضها ، الأمر الذي آلمه وأهانه وجعله يشعر باغتراب نفسي .

أطر عنترة ذلك الاغتراب بشئ من المباهاة والتفاخر بالذات والمكابرة في سبيل الخلاص وفي سبيل يغير وجهَ نظر المجتمع لكل ذلك . فهو لم يرد لأحزانه وآلامه أن تتجاوز حدها في نفسه أو أن تسيطر عليه فبرز ذلك من خلال استنهاض الهمة والبحث عن لذة يخفف بها آلامه وإحساسه بذل العبودية . فهو حين عيّره قومه بأمه زبيبة تلك ألامه الحبشية ، كان لذلك التعيير وقع نفسي شديد عليه ، لكنه استبدله وحوّله إلى طاقة ايجابية عن طريق اعترافه وتصريحه بذكره لأمه إذ لم يكن لها ذنب في لونها ولا في كونها أمةء فهي مغلوبة على أمرها وكذلك اعترافه بلونه الأسود و بأنه شجاع مقدام لا يثنيه سواد لونه عن قتل الأعداء فكانت تلك أولى الطرق و السبل التي واجه بها عنترة آلامه النفسية فكان أسلوبه في الرد الحاسم قال :

وقَد أمسَوْا يعيبونني بأمّي ولَوني كلما عَقدوا وَحلّوا
لقد هانَتْ صروفُ الدَّهر عندي وهانوا أهْلُه عِندي وَقلّوا[33]

وحاول جاهدا أن يعوض عن نسبه كونه هجيناً يعوضه بأفعاله المحمودة وفي الوقت ذاته يؤكد ذكرهم وتذكيرهم له بأنه عبد أسود لا نفع له غير الحلب والصر بقوله :

وأنا الأسودُ والعْـبـدُ الذي يقْصِدُ الخيلَ إذا النَّقع(*) ارتَفعْ
نسبي سَيفي ورُمحي وهُما يُؤْنِساني كُلَّما اشْتدَّ القَرَعْ(34)

ولقد حباه الله تعالى بقوة جسدية دفعته نحو المواجهة وساعدته في الخلاص من عبوديته المؤلمة فنجده يوائم بين لذة آلامه ولذة انتصاراته بقوله :

ولَقدْ شَفى نَفْسي وأبْرأُ سُقْمها قيـلُ الفوارس ويـكَ عـنْترَ اقْدمِ
والخَيلُ تـقْتَحِمُ الغُبارَ عوابِساً مـا بَين شيْظَمةٍ(*) واجْرِدِ(*) شيْظَمِ
ذُلُلٌ ركابي حيثُ شئْتُ مُشايعي لُـبّـي(*) واخْفِرهُ(*) بأمـر مُبْرمِ(*) (25)

ونراه يواصل ذلك الزهو بقوته وانتصاراته اذ يقول :

وأنا المُجَرَّبُ في المواقف كلّها من آلِ عَبْسٍ مَنْصبي وفِعالي
منهُمْ ابي شدّادُ اكْـرمُ والـدٍ والأمُّ منْ حامٍ(*) فهمْ اخْـوالي
وأنا المنيَّـةُ حينَ تَشْتَجرُ القَنا والطَّعنُ مني سابقُ الآجالِ(36)

لكن كل ذلك لم يعوض عنترة عما يختلج في نفسه من الآم وعُقد نفسية سببها لونه الاسود .

عنترة ومواجة المأساة

حاول عنترة جاهداً التعويض عن شعوره بالنقص ومواجهة مأساته بصورتين أولها الأفعال الحميدة وثانيهما فروسيته التي جاوزت الحد .

تجسد ما حاول مواجهته من خلال الصورة الأولى (الأفعال الحميدة) بجوهر الشاعر عنترة وقيمته الإنسانية الحقيقية التي لا يحددها لون البشرة التي اصطبغت بها بشرة عنترة بل أنها تمثل قيمة الأخلاقية ومبادئه وقيمه الحميدة وقد أضفى قيمه على السواد باقترانه وتشبيهه بالدر الذي يغطيه ثوب من الصدف فكأنه حاول ان يفخر بلونه وبكونه عبداً .

وإنْ يَعيبوا سواداً قَدْ كُسيتُ بهِ فـالـدُّرُّ يَـستُـرهُ ثوبٌ مِن الـصدف

وقوله في موضع اخر

(*) النقع : غبار الحرب.
(*) شظيمة : الطويلة (*) الاجرد : قليل الشعر
(*) مشايعي لبي : يريد ان عقله حاضر معه (*) اخفره : ادفعه
(*) الامر المبرم : المحكم
(*) من حام : من نسله ولون بشرتهم هو الاسود

يَــعيبُون لوني بالسّوادِ جهالةً ولــولا سوادُ اللّيــلِ ما طَــلــعَ الفجرُ[37]

وإنْ كانَ لوني اسوداً فَخصائلي بــيــاضٌ ومِن كَفَــيّ يُســتنزل القْطرُ[38]

فهو يؤكد وبإصرار أن تعيير قومه له وللونه الأسود لا يضره فلو لا سواد الليل ما طلع الفجر .

كذلك اعترافه صراحة بنسب امه الوضيع فهو ليس يضره في شئ في ظاهر الأمر لكنه كان يخفي كثيراً من شعوره بالمرارة والأسى لما انطوت عليه نظرة ابناء قومه له وتقديرهم إياه قال :

ماساءَني لوْني واسْمُ زَبيبةٍ إنْ قَصَّرتْ عن هِمَّتي اعْدائي

فَلَئن بَقيتُ لأَصْنَعنَّ عَجائبا ولأبْكَمنَّ بَلاغــةَ الفَصحــاءِ[39]

وزاد على اعترافه ذلك قبوله ورضاه واستسلامه لواقع أمه في شكلها ولونها بل زاد عليه وصفه لها :

وأَنا ابْنُ سوداءِ الجبينِ كأنَّها ضَبعٌ تَرعرعَ في رُسومِ المَنزلِ

السَّاقُ منها مثْلُ ساق نَعامَــةٍ والــشَّعرُ منها مثْلٌ حَــبِّ الفُلْفُلِ

الثّغــرُ من تــحتِ اللثامِ كأنّه برقٌ تلألأَ في الــظلامِ المُسَدّلِ[40]

فهو لم يكتف بالرضا والاستسلام بل زاد عليه تشبيهه سواد أمه بالضبع ذلك الحيوان الذي كانت العرب تتشائم منه ولم يكن ذلك فقط مجالاً للتعويض عن عقدته فلجأ الى منفذ آخر وهو الفروسية .

فكان القتال عنده يمثل فرحا وسروراً لأنه يتجاوز به عقدة النقص .

وافْرحُ بالسَّيفِ تَحتَ الــغُبــارِ إذا ما ضَرَبْتُ بهِ ألفَ ضَرْبَهْ

وتَشْهــدُ لــي الخَيلُ يَومَ الطِّعانِ بأَني أُفَرّقُها ألــفَ سُــربَهْ[*]

وإنْ كانَ جِلــدِي يُــرى أَسْــوداً فَلي في المكارمِ عِزٌ ورُتبَهْ

ولَوْ اَنّ لِلمــوتِ شــخْصــاً يُرى لَروعتُهُ ولأَكثَرتُ رُعبَهْ[41]

فلم ينس عنترة ذكر سواده وهو في موضع الحرب لكنه أعقبه بوصف فعاله الحميدة فهو كريم وذو عز ورتبه .

وقوله في موضع آخر في يصف المعارك واستعراضه قواه الجسمانية التي حباه الله بها قائلاً :

واشتاقَ كاساتِ المنونِ اذا صَفَتْ ودارت على رَأسي سِهامُ المصائبِ
ويطْربني والخيلُ تعثُرُ بالقَنـــــا حُداةُ المنايا وارتهـــاجُ المواكـــبِ
وضربٌ وطَعنٌ تحتَ ظلِّ عَجاجةٍ كجُنحِ الدُّجى مِن وَقعِ أيدي السَّلاهب(*)
تطيرُ رؤوسُ القومِ تحتَ ظلامِها وتنقَضُّ فيها كالنجُّـومِ الثَّواقـــب(*)
وتلْمعُ فيها البيضُ منْ كُلِّ جانبٍ كلمـــحِ بُـــروقٍ في ظلامِ الغياهـــب(*)
لعمركَ إنَّ المجْدَ و الفَخرَ و العُلا وَنيلَ الاماني وارْتفـــاعَ المراتـــبِ
لَمنْ يَلتقي أبطالَها و سراتَهـــا بقلـــبٍ صَبورٍ عندَ وقعِ المضارب(*)
و يبني بحدِّ السَّيفِ مجداً مُشيداً على فلـــكِ العلياءِ فوق الكواكبِ(42)

نراه في هذه المقطوعة يفرح وتطرب نفسه للحرب بل ويشتاق سيفه الى كاسات المنون ليروي عطش نفسه لإثبات الذات المتألمة من عقدة اللون و التعويض عما تحتاجه في الفروسية والشجاعة في ميدان الحروب بل الثبات فيها وتحقيق الانتصارات المتلاحقة من اجل إرضاء النفس المنكسرة فهذا سيفه يبني مجداً مشيداً ثابتاً خالداً تخطفه الكواكب في عليائها وبها ترتفع علياء نفسه.

ومما أرّق نفس عنترة وآلمها هو بغض أبناء قومه له فهم لا يحبونه ولا يذكرونه إلا في الحروب واحتدام المعارك عندها تعلو مكانته لديهم وفي السلم يظلمونه ولا ينصروه على الرغم من كونه فارسهم والمدافع عن حماهم وفي هذا تعويض له عن آلامه بفروسيته .

أُذكِّرُ قوْمي ظُلْمَهمُ لي وبغيَهمْ وقِلَةَ إنصافي على القربِ والبُعدِ
بَنيتُ لَهُم بالسَّيفِ مجداً مشيّداً فلَّما تناَهى مَجدُهُم هدمُوا مجْدي
يعيبونَ لوني بالسَّوادِ وإنما فِعالُهُم بالخبْثِ أسودُ مِنْ جِلْدِي(43)

فهو يرى إن قومه جاروا عليه حينما بخسوه حقه في الاعتراف به على الرغم مما أبداه من شجاعة ورغبة صادقة في الدفاع عن القبيلة وحرائرها وحماها ، اذ كانت العرب لا تعترف بالهجناء الا اذا ابدوا نجابة(44) لكنهم لم يرعوا له حقه في الاعتراف به فأخذ يذكرهم بإخلافهم وعودهم ودستورهم في الاعتراف به كسائر الأغربة . ولم يكتفوا بذلك فهم طالما ينادونه ويعيبونه بسواد لونه لكنه يخبرهم بأن أفعالهم تلك إنما هي مثلبة عليهم

(*) سربه : جماعة الخيل من العشرة الى العشرين (*) السلاهب (جمع سلهب) : وهو الفرس الطويل الشديد
(*) الثواقب : اللامعة (*) الغياهب : الليالي المظلمة
(*) المضارب : السيف

وهي وصمة عار سوداء في جباههم أكثر من سواد لونه ، وتابع عنترة بن شداد تعويض عقدة لونه بالبطولة والفروسية في الميدان بل وزادها بان أضفى على خصومه الذين تمكن من قتلهم والنصر عليهم أضفى عليهم صفات الشجاعة والفروسية فهم لاقوه مدججين بالسلاح وأشداء ولم يخشوا مواجهته وأراد بذلك إبراز قوته وتأطير انتصاراته عليهم فهو الأقوى وهو المنتصر إذا لم يكن مسلحا ولا محتميا بدرع يقيه ضربات العدو .

ومدجـــج(*) كـــرهَ الكُمـــاةُ نزالـــهُ لا مُمعـــنٍ هـــربـــاً ولا مُستسلمِ
جـــادتْ لَـــه كفـــي بعاجـــلِ طعنةٍ بمثقّفٍ(*) صدْق الكُعوبِ(*) مَقّومِ
برحيبةِ(*) الفرعينِ يهدي جَرسُها باللّيل مُعتسّ(*) الذئابِ الضُّرَّمِ(*)
فشككـــت بالرمـــح الاصـــم ثيابه ليس الكريم على القنـــا بمحرم
فتركتـــه جـــزر السبـــاع ينشنـــه يقضمن حُسنُ بنانه والمعصم(45)

فهو وصف خصمه وصفة من ناحيتين الأولى خارجية تجلت بلباس ذلك الفارس الخصم وسلاحه والثانية داخلية تمثلت بوصف عنترة لنفسه فهو لم يخف من مواجهة ذلك الفارس المدجج بالسلاح ولم يتردد . ولقد استخدم عنترة ألفاظاً أضفت على القوة الحربية قوة بلاغية اجتمعتا فكونتا قوة نفسية ساعدت الشاعر على الخلاص من عقدته (اللونية) ومنها لفظة شككت ، فتركته ، طعنت ، علوته من خلال هذه الألفاظ يصل إلى حقيقة أن عنترة كان كثيراً ما يفخر بنفسه وبانتصاراته الفردية دون النصر القبلي لأنه أراد أثبات قوته الحربية لينال حريته الشخصية والاجتماعية انه نصر حققته عقده النفسية (عقدة اللون) ولذلك نراه قد عبر عنها بقوله :

إنّي امروٌ من خيرِ عبسٍ مَنصبا شَطْري(*) واحمي سائري بالمُنْصُلِ(*)
إن يُلحَقُوا اكْرُر وإنْ يُستلحَمـــوا أشْـــدُدْ وإن يُلفَـــوا بضَنـــكٍ أنزلِ
حينَ النُّزول يكونُ غايةَ مثْلِنـــــا ويَفـــرُّ كـــلُّ مُضَلّـــل مُستَوهَـــلِ(*)
ولقدْ أبيتُ على الطَّوى(*) واظَلُّهُ حتـــى انـــالَ بـــه كريمَ المأكلِ(46)

فهو القادر على حماية القبيلة بأسرها لوحده وما تلك القوة والشجاعة الفردية إلا ليسترد نسبه ولينال ابنة عمه قال مخاطبا إياها وحدثها ببطولاته في الحروب :

(*) مدجج : المسربل بالسلاح
(*) بمثقف : المقوم
(*) الكعوب : العقد في عصا الرمح ي صلب على الرمح
(*) رحيبة : واصعة
(*) معتس : الماشي في الظلام يطلب شيئا
(*) الضرم : الجياع
(*) شطري : نصفي
(*) المنصل : السيف
(*) المستوهل : الجبان
(*) الطوى : الجوع

يُخبركِ مَن شَهدَ الوقيعةَ انني أغشى الوغى وأعِفُّ عندَ المغنمِ
و لقد ذكــرْتُك والرِّماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهندِ تقْطرُ منْ دمي
فــودِدْتُ تقبيــلَ السيوفِ لأنها لَمعتْ كبارقِ ثُغركِ المتَبسِّمِ[47]

وكثيراً ما يرد في قصائده ذكره لاسمه لما يمثله من دلالة نفسية تعبر عن عقدة كامنة في ذاته :

لمَّا رأيتُ القومَ اقْبلَ جَمعُهم يتذامَرونَ(*) كررْتُ غيرَ مُذَمّمِ
يدْعون عنْترَ والرماحُ كأنها أشْطانُ بئرٍ(*) في لَبانِ الادْهَمِ(*)
ما زلتُ ارميهم بثُغْرةِ نحرهِ ولَبانهِ حتى تسربلَ بالدمِ
فازورِّ من وقعِ القنا بلَبانهِ وشكى إليَّ بعَبْرةٍ وتحمْحُمِ[48]

فهو حينما يسمع هتاف قومه واستنجادهم به يؤكد انه لا يساومهم في الشجاعة والقوة فهو متفوق عليهم حتى خُيل إليه انه رمى الصخرة التي جثمت على صدره (عقدة اللون) التي نجح عنترة في التصدي لها والنصر عليها والظفر بما أراد واعتراف أبيه وقومه به .

هكذا عبر عنترة بن شداد عن عقدته اللونية والنفسية وهكذا حقق انتصاراته . فكان هذا حاله ومَنْ سار على نهجه ، أما البعض من الأغربة والذين لم يتمكنوا من نيل حرياتهم فقد كانوا عاجزين (إما العاجزون وذو الهمم الضعيفة من أولئك السود فكانوا يبتلعون أحزانهم ويظلون يجترونها حتى يدركهم الموت أو يدركوه)[49]

كذلك هناك من الأغربة لم تتح لهم فرصة عنترة في الارتقاء بنسبه فأنهم كانوا يتمردون على أوضاع القبيلة وعلى ازدراء أفرادها لهم فيرفضوا حياة الذلة التي يختارها لهم الآخرون متخذين من قوتهم الجسدية سلاحاً يحصلون به على حقوقهم الاجتماعية ومنهم تتكون طبقة الصعاليك .

قائمة الهوامش

1- مقدمة ابن خلدون : 110/1
2- المفضليات : 355
3- ينظر حضارة العرب في عصر الجاهلية : 72
4- ديوان عامر بن الطفيل : 13

(*) يتذمرون : يتدافعون (*) اشطان بئر : حباله
(*) لبان الادهم : صدر فرس عنتره (*) الشيظمة : الطويلة

5- ينظر: نقائض جرير والفرزدق : 1 / 13
6- ينظر الشعر والشعراء : 130
7- ينظر صبح الاعشى : 1 / 310
8- ينظر المصدر نفسه والصفحة نفسها .
9- الاغاني : 2 / 4
10- لسان العر ب / مادة (غ ، ر ، ب)
11- القاموس المحيط مادة (غ ، ر ، ب)
12- شرح ديوان عنترة بن شداد : 15
13- تاج العروس
14- ينظر الشعراء السود : 21 وينظر الشعراء الصعاليك : 109
15- ينظر الحيوان م 1 /355
16- ينظر الشعراء السود/ 31 . و ينظرالشعراء العباسيين : 106 – 110. وينظر عاهات الشعراء / 110
17- شرح ديوان عنترة : 111
18- ينظر الشعراء الصعاليك : 110 وينظر المرأة في الشعر الجاهلي : 494
19- شعر حماسة التبريزي على حماسة ابي تمام : 149/1 كذلك ينظر الفروسية في الشعر الجاهلي / 288
20- ينظر رحلة الشعر من الاموية الى العباسية / 256
21- ينظر الشعراء الصعاليك : 110
22- ينظر موسوعة اساطير العرب 2 : 29
23- التلخيص في معرفة اسرار الاشياء 2 : 604
24- ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : 5 / 352
25- سرور النفس في مدارك الحواس الخمس / 405
26- لسان العرب مادة (ب ، ي ، ض)
27- ينظر دلالات الالوان في شعر نزار قباني : 35
28- العقدة النفسية والشعور بالنقص / 10
29- الشعراء السود / 340
30- شرح ديوان عنترة بن شداد : 189
31- المصدر نفسه / 73
32- المصدر نفسه / 11
33- المصدر نفسه / 165
34- المصدر نفسه /
35- المصدر نفسه / 194
36- المصدر نفسه / 163
37- المصدر نفسه / 133
38- المصدر نفسه / 106

39- المصدر نفسه / 11
40- المصدر نفسه / 172
41- المصدر نفسه / 13
42- المصدر نفسه / 22
43- المصدر نفسه / 71
44- ينظر الشعراء الصعاليك : 110 وينظر المرأة في الشعر الجاهلي : 494
45- شرح ديوان عنترة بن شداد : 191 – 192
46- المصدر نفسه : 147 – 148
47- المصدر نفسه : 191
48- المصدر نفسه : 194
49- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه : 73

قائمة المصادر

- الاغاني ، لابي فرج الاصفهاني ت (356 هـ) تصحيح الاستاذ احمد الشنقيضي النقشبندي قوبل على نسخة القديمة بالكتانجانه الخديوية مطبعة التقدم د . ت
- التلخيص في معرفة اسماء الاشياء ، ابو هلال العسكري ، تحقيق غرة حسن مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق 1970 م
- تاج العروس من جواهر القاموس للامام اللغوي محب الدين ابي الفيض السيد مرتضى الحسني الواسطي الزبيدي ت (1205 هـ) د.ط
- حضارة العرب في العصر الجاهليه ، حسين الحاج حسن ، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع ط1 1984 م
- الحيوان ، الجاحظ تحقيق فوزي عطوي بيروت دار صعب 1978 م ط2
- دلالات الالوان في شعر نزار قباني ، احمد عبد الله محمد ، جامعة النجاح نابلس 2008 م
- ديوان عامر بن الطفيل رواية ابي بكر محمد بن القاسم الانباري عن ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب دار صادر بيروت 1979 م
- رحلة الشعر من الاموية الى العباسيه د. مصطفى الشكعة ، عالم الكتب بيروت 1979 م
- سرور النفس في مدارك الحواس الخمس ، ابو العباس التيفاش تحقيق د.احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1 1980 م
- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، د. عبدة بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتب جمهورية مصر العربية ، وزارة الثقافة والإعلام ، القاهرة 1972 م
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار المعارف ط3 1966م

- الشعر والشعراء ، ابو محمد بن عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة) طبع في المدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل 1902 م
- شرح ديوان حماسة ابي تمام ، شرح الشيخ ابي زكريا يحيى بن علي التبريزي الشهير بالخطيب ، عالم الكتب بيروت (د.ط) ، (د.ت)
- شرح ديوان عنترة بن شداد قدم له وعلق حواشيه ، سيف الدين الكاتب و احمد عصام الكاتب ، منشورات دار المكتبة الحياة بيروت لبنان 1981 م
- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، احمد بن علي القلقشندي ، شرحه وعلق عليه عليه وقابل نصوصه ، محمد حسن شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ط1 1418
- عاهات الشعراء في الجاهلية والإسلام طبيعتها وأثرها في مستوى النص الشعري ، عدنان عبد النبي البلداوي ط1 1977 م
- العقدة النفسية والشعور بالنقص ، عباس مهدي البلداوي ، مطبعة الزهراء بغداد 1978 م
- الفروسية في الشعر الجاهلي ، د. نوري القيسي ، منشورات مكتبة النهضة – بغداد طبع على مطبعة دار التضامن بغداد ط1 1964 م
- القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ت (817 هـ) المؤسسة العربية للطباعة والنشر دار الجيل بيروت – لبنان 1965 م
- المرأة في الشعر الجاهلي ، د. احمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر القاهرة ط1 1954م وط2 1963 م و ط3 1980 م
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ساعدت جامعة بغداد على نشره منشورات دار العلم للملايين ط1 1970 م
- المفضليات اختيار المفضل الضبي تحقيق عبد السلام محمد هارون ، محمد احمد شاكر ط2 (د.ت)
- لسان العرب الامام العلامة ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت(711 هـ) دار صادر – دار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1956 – 1995
- مقدمة ابن خلدون / تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ في كلام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر لوحيد عصره العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي المغربي ت (808 هـ)
- موسوعة اساطير العرب د. محمد عجينه دار الفارابي و دار محمد الحاجي للنشر، 2005 م

- النقائض / نقائض جرير والفرزدق رواية ابي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي عن الحسن بن الحسين بن محمد بن حبيب بن ابي عبيدة معمر بن المثنى التميمي ، طبع في مدينة ليدن المحروسة مطبعة بريل 1905 م

Abstract

The knot of color at the Arabs' strangest times in the pre-Islamic era was a psychological problem rooted in them by the society that was perceived as evil because they were born to mothers of emma who acquired their black color. Their fathers did not recognize them and they worshiped them. Was one of those strangers to bow to his fate، which was imposed humiliation and humiliation was a slave to serve his brothers and the rest of them who did not calm him the same fuss in the face of society and obtained his freedom، as there are those who went out on the customs of the tribe and became a rebel against the neighbor who is governed by the rule of Donnie black color ، The research took from Antara Ben Shaddad a model for the outsiders who did not succumb to that humiliation، his father recognized his sons and attributed his proportion and thus is the heroism of heroes. The introduction of the research dealt with the nature of the social life of the tribal society and its social classes . The second topic deals with the psychological effect of the color complex at the anthrax of Ben Shaddad، as well as how to cope with the antagonism of his tragedy and his salvation. Of color.